مجلة الرائد

العدد : ٢١٢ الموافق في جمادى الأولى ١٤٢٠ هجري ٩ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : أنا .. وعلي الطنطاوي	بقلم : أ. عصام العطار

سمعت الطنطاوي وسمعت به أول مرة في الجامع الأموي في دمشق وأنا في نحو الثامنة من العمر مات من كان يلقبونه بالمحدِّث الأكبر في الشام : الشيخ بدر الدين الحسني رحمه الله تعالى ، فسعتْ دمشق إلى الجامع الأمويّ ، وسعينا مع الناس ، وكنا تلاميذ صغاراً في مدرسة ابتدائية تُدعى « مدرسة الحبّال » أغلقت في ذلك اليوم أبوابها كما أغلقت دمشقُ أسواقها للمشاركة في تشييع العالم الجليل

واكتظّ الجامعُ الأموي بالألوف بل بعشرات الألوف من الناس الذاهلين أو الباكين أوالمهللين المكبرين ، وارتفع من أعماق المسجد ، من على منبره ، صوتٌ قوي مؤثر ، دون مكبّر ، وصل إلى جميع المسامع ، فسكن الناس بعض السكون ، وأنصتوا لكلام الخطيب الذي تحدّث – كما لا أزال أتذكر – عن فداحة المصاب بالمحدّث الأكبر : الشيخ بدر الدين ، وفداحة المصاب بالعلماء الأعلام عندما يموت العلماء الأعلام ، فنفذ إلى قلوب الناس ومشاعرهم ، بصدقه وعلمه وبلاغته ، وجمال إلقائه وصفاء صوته وقوته ، وحرّكها كما يريد

وسألت :

- من هذا الخطيب ؟

قالوا :

- إنه الشيخ علي الطنطاوي

وعلمتُ من بعد أن علماء البلاد الكبار هم الذين اختاروه وقدموه لهذا الموقف

كان ذلك في سنة ١٩٣٥م وله من العمر زهاء ستٍّ وعشرين سنة

* * *

في الثانية عشرة من عمري عرفت « مجلة الرسالة » التي كان أصدرها أحمد حسن الزيات في القاهرة سنة ١٩٣٣م ، وكان يكتب فيها شيوخ الأدب ورُوّاده الكبار ، واشتريت بعض أعدادها القديمة من إحدى المكتبات ، فقرأت فيها الرافعي والزيات والمازني وطه حسين وأحمد أمين ، وعباس محمود العقاد بعْدَ وفاة الرافعي .. رحمهم الله جميعاً

وفي مجلة الرسالة قرأت علي الطنطاوي ، وأعجبت به وبما قرأته له

أعجبتُ بروحه العربية والإسلامية الصافية ، وحماسته الصادقة للدين والفضيلة والمثُل العليا ،

وحربه المستعرة على الفرنسيين والإنجليز والغزو الثقافي والفكريّ ، وانتصارِه للعرب والمسلمين المستضعفين في كل مكان ، ودفاعه عن حقوق شعوبنا وأبنائها المضطهدين أوالمستغَلّين أو المحرومين .. وأعجبت بما كان يجلوه على قُرّائه من صور تاريخنا العربي والإسلامي المشرق التي تبهرُ العقول ، وتحرك النفوس ، وتحفزها إلى رفض الواقع والحاضر الحقير ، والسموّ بالمطامح والمشاعر ، والأفكار والمآمل ، والعلم والعمل ، إلى واقع أسمى ، ومستقبل أفضل

كلُّ ذلك بأسلوب جَزْلٍ سليمٍ جميلٍ رائع التصوير ، بارع التعبير ، وإن شابَهُ أحياناً شيء من المبالغة والتطويل

وما زال أسلوب علي الطنطاوي يبتعد عن المبالغة والتكلف ، ويغلب عليه القَصدُ والصِّدق والطَّبْعُ ، حتى غدا هو الطنطاويَّ نفسَه بلا زيادة ولا نقصان ، فإذا قرأتَ الطنطاويّ ، رأيتَه من خلال سطوره وكلماته كما هو في واقع الحياة ، وهذه مرتبة لا يبلغها إلا الأُصلاءُ البُلغاء المتميّزونَ من أمراء البيان

وإذا أردت يا قارئي أن تعرف ما هو « السهل الممتنع » حقيقةً لا وصفاً ، فاقرأ علي الطنطاوي أو اسمعه ، فأسلوبه هو السهل الممتنع في صورة من أندر صوره ، في سهولته وسلاسته ، وسلامته وبلاغته ، وسحره وحلاوته ، ودقته المدهشة في التصوير والتعبير ، وقدرته الفائقة على تيسير العسير، وتقريب البعيد ، والوصول بالأفكار والمشاعر ، والحقائق والمعارف ، بطريقة بسيطة مفهومة محكمة محببة ، إلى الكبير والصغير ، والمرأة والرجل ، والمتعلم والعامي ، من مختلف طبقات الناس

ولا أنسى للشيخ علي - كما تعودنا أن نقول - مقالاته الطريفة الساخرة ، التي كانت تحمل خفة ظله ، وحلاوة فُكاهته ، ولطف دُعابته ، ولواذع سخريته ؛ وإنك لتقرأ إحدى هذه المقالات الساخرة فلا تملك نفسك من الابتسام بعد الابتسام ، ومن القهقهة مرةً أو مرات

علي الطنطاوي - دون شك - واحد من كبار أمراء البيان في هذا العصر ؛ بل إن بعض صفحاته لترفعه مكاناً علياً بين أمراء البيان في سائر العصور

* * *

وفي سنة ١٩٤٥ أو ٤٦ م افتتح المعهد العربي الإسلامي في دمشق ، وحضرتُ فيه بعض الدروس . ودعت إدارةُ المعهد مرة الأستاذ الطنطاوي لإلقاء درس أو محاضرة أدبية على طلبة صفوفه العليا وبعض أساتذته ، وحضر الأستاذ الطنطاوي فألقى الدرس أو المحاضرة ، ثم طلب إلى الحضور أن يسألوا أو أن يعقّبوا على ما قال ، وتكلمتُ كما طلب ، وكان لي نظرة غيرُ نظرته ، ورأي غيرُ رأيه

في بعض ما سمعناه منه ، وبعد نحو دقيقتين أو ثلاث استوقفني ، وطلب إلي أن أقف بدَله على المنبر ، وأن يجلس بدلي على مقعد الدرس ، فأبيت واستحييت ، فأقسم عليّ أن أفعل ، وقال لي بحرارة وحبّ : أنت أحق بأن يتلقّى عنك ، ثم التفت إلى الحضور وبينهم بعض الأساتذة وقال : والله لا أدري كيف يأتون بمثلي وعندهم هذا العالم الأديب

ووقفت على المنبر ، ولم أتابع الحديث فيما كنت فيه ؛ ولكنني تحدثت عن الأستاذ الطنطاويّ ، وعن آثاره ، وخصائص أدبه ، حديث العارف المستوعب المتعمق ، وهو ينظر إلي بدهشة ولا يكاد يصدّق ، فلما انتهيت قال لي : من أنت ؟ قلت عصام العطار . قال : هل تعرف الشيخ رضا العطار ؟ قلت : هو أبي ، وكان أبي أيضاً من رجال القضاء . ومنذ ذلك الوقت بدأت معرفتنا الشخصية المباشرة ، وأخذت خطاي طريقَها إلى بيته في الجادة الخامسة في المهاجرين ، وخطاه طريقها إلى بيتنا في « الزهراء » قرب الجسر الأبيض ، واتصلت حبال الوُدّ بين الأسرتين ، الرجال مع الرجال ، والنساء مع النساء ، وكان محمد سعيد ، الأخ الأصغر لعلي الطنطاوي ، أخاً لي وصديقاً أثيراً ، ووالله ما رأيتُ ، على طول ما عشت ، وكثرة من قابلت على هذه الأرض ، أزهد منه ولا أكرم ولا أعبد ، فألف سلامٍ وسلام على أخي الحبيب ، وصديقي الصدوق ، محمد سعيد الطنطاوي ، في شيخوخته ومرضه ووحدته في مكة المكرمة

ولم أذكر هنا ما ذكرته من حديثي مع الأستاذ الطنطاوي للتفاخر به ، وقد جاوزت الآن السبعين من العمر ، وليس من عادتي - كما يعلم المقربون من أصدقائي - أن أتفاخر بمثل هذه الأمور ، وإنما ذكرته لأمرين : أولهما أن أدُلَّ على أريحية الأستاذ وخلقه وكرمه ، وحرصه على تربية الملكات ، وتفتيح الإمكانات ، وتشجيع من يقدِّر فيهم الخير ، فأنا لا أعرف أستاذاً له شيء يسير من علم الطنطاوي ومنزلته وشهرته يمكن أن يعامل تلميذاً لم يكن يعرفه ، بمثل ما فعل الطنطاوي . ثانيهما أن أسجل اللحظة والمناسبة التي وُلِدتْ فيها معرفتنا الشخصية المباشرة ، وأخوتنا وصداقتنا التي نمت وازدهرت مع الأيام

وليس بسرّ أنني والشيخ علي الطنطاوي لم نكن نتفق دوماً في كل أمر ، وفي كل موقف ، وفي تقويمنا للأشخاص والأوضاع ، بل ربما اختلفنا في بعض ذلك أشد اختلاف ؛ ولكن اختلافنا لم يضعف أخوتنا ومحبتنا ، ولم يوهن صداقتنا ورابطتنا ، وتعاوننا الوثيق على البر والتقوى في كثير من الأمور

* * *

سنة ١٩٤٧ رشح علي الطنطاوي وهو في مصر نفسه للانتخابات النيابية التي جرت في سورية ، ثم حضر متأخراً إلى دمشق . كانت شعبيته قوية واسعة ؛ ولكن التزوير الصارخ عمل عمله في تلك الانتخابات ، وكانت هنالك أيضاً ظروف سياسية ، وتحالفات حزبية ، ومصالح شخصية واقتصادية ، جعلت عدداً من إخوانه وأصدقائه يقفون ضده أو يتخلون عنه . أشار إلى ذلك بمرارة في ذكرياته ، ومن ذلك قوله في بعض من خذلوه : " لقد أعرض عني أقرب أصدقائي ممن أسميهم أصدقاء العمر ، وكانوا رفاقي في المدرسة ، وكانوا أصحابي في حياتي ، نسوا ما كان بيننا وبينهم ... " ، ولكنه ذكر من وفواْ له بالخير : " لقد رأيت الوفاء من جيراننا في الحي ، ورأيت الوفاء من تلاميذي وتلاميذ أبي ، حين أقام لي الشيخ محمود العقاد رحمة الله عليه حفلة في مدرسته « المدرسة التجارية العلمية » جمَعتْ وجوه البلد ، وفي هذه الحفلة ظهر خطيب جديد كان يومئذ شاباً في العشرين ، فبهر الناس بخطبة ارتجلها ، وبهرني مع الناس هذا الذي صار من بعدُ نابغة الخطباء ، وهو عصام العطار . "

لم أصِرْ « نابغة الخطباء » كما ذكر الأستاذ رحمه الله ، ولكن - وأقولها للحقيقة - لم تكن هذه أول خطبة لي ، وإن كانت أول خطبة سمعها الأستاذ مني ، فقد تعودت الخطابة وأنا في المدرسة الابتدائية . كانوا في إدارة مدرستنا إذا زارتنا مدرسة أخرى ، وتكلم بعض أساتذتها ، طلبوا إلي ، بل ألحوا عليّ ، أن أرد على غير رغبة مني - باسم الإدارة والأساتذة والطلاب جميعاً

ذكرت الانتخابات وما كتبه الشيخ علي الطنطاوي وعن خطبتي ، لأبين أن هذه المناسبة وأمثالها قد زادت الشيخ محبة لي ، وتقديراً واحتراماً ، وجعلت صلتنا وصداقتنا تقوم على أساس أرسخ من مجرد الأخوة أو الحب الأبوي

* * *

سافرت سنة ١٩٥١ أو ٥٢م إلى القاهرة مع أخي وصديقي المجاهد الجليل محمد زهير الشاويش ، لأسباب منها أنني كنت أهاجم دكتاتور سورية في ذلك الحين العقيد أديب الشيشكلي في خطبي في مسجد الجامعة السورية ، وفي مواطن ومحافل أخرى ، فألزمني بعض كبار علمائنا - ومنهم الأستاذ الطنطاوي - بأن أسافر إلى مصر ، لتفادي الصدام ، وتخفيف حدة التوتر ، وللدراسة فيها أن أحببت ، أو لقضاء بعض الوقت خارج سورية على الأقل

وفي غيابي مرض أبي ، واشتد به المرض ، ولم يخبرني بذلك أحد . كان - رحمة الله عليه - يستحلف كل مسافر إلى مصر يزوره يعرفني ، ألا يخبرني بمرضه ، خوفاً علي من بطش الشيشكلي إذا

عدت ؛ ولكن عندما أحسّ إخوانه وإخواني بدنو أجله ، أبرق الأستاذ الطنطاوي إلى خاله العلامة المجاهد الرائد : السيد محب الدين الخطيب - رحمه الله تعالى - بأن يتلطف بإخباري بمرض أبي ، وضرورة عودتي إلى دمشق ، وعدت إلى دمشق قبل وفاة والدي بأيام

وفي دمشق رأيت حول سرير أبي عدداً من الإخوة والأصدقاء ، ما فارقوه يوماً من الأيام ، على امتداد شهور مرضه ، إخوة وأصدقاء انطبعت صورهم في قلبي ، وغدوا عندي كأهل بدر : « اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم » فكيف وهم قد طوقوا من بعدُ بمحبتهم ووفائهم وعونهم عنقي ، ولم يكن منهم إلا الجميل من القول والفعل ، ومن هؤلاء أخي وصديقي ، أستاذنا ، وأستاذُ جيلنا بل أجيالنا : علي الطنطاوي

وتولى الأستاذ الطنطاوي أمر الجنازة لتكون بكل ما فيها وفق السنة المطهرة ، رغم احتجاج كثير من أهلنا ومن معارفنا ، فكانت أول جنازة في الشام لعالم من العلماء لا يكون فيها أيٌّ بدعة من بدع الجنائز ، وذلك كله بفضله

وفي المقبرة وقف على قبر أبي يرثيه ، فبكيتُ بعينيه ، وأبكيتُ بلسانه الناس وتكلم أيضاً الأستاذ الجليل أحمد مظهر العظمة رحمه الله ، وتكلم آخرون ، لم أعد أتذكر تماماً كل من تكلم ، فلم أكن معظم وقتي خلال تشييع أبي ودفنه ورثائه في هذه الدنيا

* * *

وقد بلغت محبة علي الطنطاوي لي ، وثقته بي ، وبلغت أخوتنا وصداقتنا ذروتها العالية عندما اختارني زوجاً لابنته « بنان » ، وتجاوزت هذه الأخوةُ والصداقةُ كل ذروة من الدُّرى عندما استُشهدت « بنان » الحبيبة في ١٩٨١/٣/١٧م في مدينة آخن في ألمانيا ، فالتقت منه ومني إلى الأبد جراحٌ بجراح ، ودموعٌ بدموع ، وذكريات بذكريات ، ودعواتٌ بدعوات

ولم تندمل قط جراح علي الطنطاوي لفقد بنان ولم تندمل جراحي ، ولم يرقأ دمعه ولم يرقأ دمعي ، ولم يسكت حزنه ، ولم يسكت حزني ، إلى أن اختاره الله إلى جواره

كتبَ في الحلقة « ١٩٩» من ذكرياته ، بعد سنوات من استشهاد ابنته ، بمناسبة يوم عيد : " أنا أكتب هذه الحلقة يوم العيد . ما على ألسنة الناس إلا التهنئات فيها الأمل الحلو ، وما في قلبي إلا ذكرياتٌ فيها الألم المرّ.. فأنى لي الآن ، وهذا يومُ عيد ، أن أقوم بهذا الذي كنت أراه واجباً علي ؟ كيف أصل إلى القبرين اللذين ضما أحب اثنين إلي : أمي وأبي ، وبيني وبينهما ما بين مكة والشام ، وكيف أصل إلى

القبر الثاوي في مدينة آخن في ألمانيا ، في مقبرة لا أعرف اسمها ، ولا مكانها ؟ ما كان يخطر في بالي يوماً أن يكون في قائمة من أزورُ أجداثهم بنتي ، ويا ليتني استطعتُ أن أفديها بنفسي ، وأن أكون أنا المقتول دونها ، وهل في الدنيا أبٌ لا يفتدي بنفسه بنته ؟ إذن لمتُّ مرة واحدة ثم لم أذق بعدها الموت أبداً ، بينما أنا أموت الآن كل يوم مرة أو مرتين ، أموت كلما خطرتْ ذكراها على قلبي ".

وفي أيامه الأخيرة ، وهو في غرفة العناية المركزة بين الحضور والغياب ، كان يُحس منْ يحفون بسريره من بناته وأصهاره وخُلَّص إخوانه ، أنه يفتقد بينهم شخصاً لا يراه ، ويرمز لهم رمزاً واضحاً إلى بنان ، ولا يُسعفه اللسان ، وارتفعت يدُه ليُعانق حفيده « أيمن » ابن بنته الشهيدة ، وقد حضر إليه من ألمانيا ، عندما رآه ، ثم سقطت اليد الواهنة على السرير ، وافترَّتْ شفتاه عن ابتسامة حزينة سعيدةٍ حلوةٍ ، امتزج فيها الحزن والسرور والشكوى ، ونطقت عيناه وأسارير وجهه بما لا يوصف من الحنان والشكر والأسى ، مما لا يعبِّر عنه ـ كما قالوا ـ قلمٌ ولا لغةٌ ولا كلام

* * *

لعلك يا قارئي الكريم تكون الآن ، وقد مررتَ بهذه السطور، قد لمحتَ خلالها لمحةً خاطفةً شيئاً من علي الطنطاوي الخطيب ، والكاتب الأديب ، والمعلم الفريد ، والصديق الوفي ، والولد البار ، والأب النادر بين الآباء

رحمه الله رحمةً واسعةً ، وجزاه عنا أحسن الجزاء ، فهيهات أن يجود بأمثاله الزمان